قصيدة: صوت صفير البلبل

قيل: إن أبا جعفر المنصور كان يحفظ الشعر من مرة، وله مملوك يحفظه من مرتين، وكانت له جارية تحفظه من ثلاث مرات، وكان بخيلاً جداً حتى إنه كان يلقب بالدوانيقي لأنه كان يحاسب على الدوانيق، فكان إذا جاء شاعر بقصيدة قال له: إن كانت مطروقةً بأن يكون أحد يحفظها أوأحد أنشأها: أي بأن كان أتى بها أحد قبلك، فلا نعطيك لها جائزة، وإن لم يكن أحد يحفظها نعطيك زنة ما هي مكتوبة فيه، فيقرأ الشاعر القصيدة فيحفظها الخليفة من أول مرة، ولو كانت ألف بيت، ويقول للشاعر اسمعها مني وينشدها بكمالها، ثم يقول له: هذا المملوك يحفظها، وقد سمعها المملوك مرتين، مرة من الشاعر ومرة من الخليفة فيقرؤها، ثم يقول الخليفة: وهذه الجارية التي خلف الستارة تحفظها أيضاً وقد سمعتها الجارية ثلاث مرات فتقرؤها بحروفها, فيذهب الشاعر بغير شيء.

قال الراوي: وكان الأصمعي من جلسائه وندمائه فنظم أبياتاً صعبة وكتبها على قطعة عمود من رخام, ولفها في عباءة وجعلها على ظهر بعير وغير حليته في صفة أعرابي غريب, وضرب له لثاماً, ولم يبين منه غير عينيه، وجاء إلى الخليفة وقال: إني امتدحت أمير المؤمنين بقصيدة. فقال: يا أخا العرب إن كانت لغيرك لا نعطيك عليها جائزةً ,وإلا نعطيك زنة ما هي مكتوبة عليه.

فأنشد الأصمعي هذه القصيدة:

صوت صـفير البلبل هيّج قلبي الثّـمـل

الماء والزهـر معـاً مع زهر لحـظ المـقَل

وأنت يا سـيد دلـي وسيدي ومـولـلي

وكم وكم تيّمـني غُزيّـل عَـقيـقلي

قطفت من وجنـتـه باللثـم وردَ الخـجل

وقلت بس بسبسـني فلم يجدْ بالقُـبل

وقـال: لا لا للـلا وقد غدا مهـرولـي

والخود مالت طرباً من فعل هـذا الرجـل

وولـولت ولـولةً ولي ولي يـا ويـللي

فقلت :لا تـولـولي وبينـي اللؤلـؤَ لي

لما رأتـه أشـمـطاً يريد غيرَ القُـبـل

وبـعده ما يكتـفي إلا بطـيب الوصلَلَي

قالت له حـين كذا: انهض وجِد بالنّـقـلي

وفتيةٍ سقـونـني قهيوةً كالعـسللي

شممتها في أنَفي أزكى من القرنفُل

في وسْط بستان حُلي بالزهر والسروللي

والعود دندن دنلي والطبل طبطبطبلي

والرقص قد طبطلي والسقف قد سقسقلي

شووا شووا وشاهشوا على ورق سفرجلي

وغرد القمري يصيـ ـح ملل في مللي

فلو تراني راكباً على حمار أهزل

يمشي على ثلاثة كمشية العرنجل

والناس ترجم جملي في السوق بالقلقلي

والكل كعكع كعكع خلفي ومن حوللي

لكن مشيت هارباً من خشية العقنقلي

إلى لقاء ملك معظم مبجل

يأمر لي بخلعة حمراءَ كالدمدملي

أجرّ فيها ماشياً مبغدداً للذّيَل

أنا الأديــب الألمعي من حـي أرض المـوصل

نظمت قطعاً زخـرفت تعجز عن الأدبلــلي

أقــول في مطلعها صـوت صــفير البلبل

قال الراوي: فلم يحفظها الملك لصعوبتها، ونظر إلى المملوك وإلى الجارية فلم يحفظها أحد منهما فقال: يا أخا العرب هاتِ الذي هي مكتوبة فيه نعطِك زنته.

فقال: يا مولاي إني لم أجد ورقاً أكتب فيه, وكان عندي قطعة عمودِ رُخام من عهد أبي، وهي ملقاةٌ ليس لي بها حاجة، فنقشتها فيها.

فلم يسع الخليفةَ إلا أنه أعطاه وزنها ذهباً, فنفِدَ ما في خزينته من المال، فأخذه وانصرف،فلما ولى قال الخليفة: يغلب على ظني أن هذا الأصمعي، فأحضره وكشف عن وجهه.فإذا هو الأصمعيُّ فتعجب منه, ومن صنيعه وأجازه على عادته، قال: يا أمير المؤمنين، إن الشعراء فقراءُ, وأصحاب عيال ,وأنت تمنعهم العطاء بشدة حفظك وحفظ هذا المملوك وهذه الجارية. فإذا أعطيتهم ما تيسر ليستعينوا به على عيالهم لم يضرك، انتهى.